الفصل الأول

1

مارغريت ميد تصبح عالمة إنسان

ولدت مارغريت ميد في السادس عشر من شهركانون الأول عام 1901 في فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا. كان والدها ويدعى إدوارد ميد يعمل أستاذاً للعلوم الاقتصادية في كلية الأعمال بجامعة بنسلفانيا التي كانت تقع في آخر الشارع المؤدي لمنزل العائلة. إلا أن فيلادلفيا لم تكن موطن مارغريت طوال السنة، فلمدة ثماني سنوات كانت العائلة تمضي الربيع والخريف من كل سنة في هامونتون بولاية نيوجيرسي؛ حيث كانت والدة مارغريت إيميلي فوج ميد تجري مقابلات مع مهاجرين إيطاليين لتدرس كيفية اندماجهم في الحياة الجديدة في موطنهم الجديد في أمريكا. كانت إيميلي فوج ميد خريجة علم اجتماع، وقد تابعت دراستها بينما كانت تعتني بأولادها الأربعة، فإلى جانب مارغريت (كبرى الأولاد) كان هناك ريتشارد

مارغريت مع والدتها، إيميلي فوغ ميد عام 1905.

وإليزابيث وبريسيلا. نشأت مارغريت معتقدة بأن فرص العمل للنساء كانت متاحة لهن مثل الرجال وأن عمل المرأة مماثل في الأهمية لعمل الرجل. وقد تعلمت من والدتها كيف تتحمل ظروف الحياة المختلفة عن الظروف المعتادة في عائلتها. وقد علمتها أمها أن الناس يفعلون أشياء مختلفة عن بعضهم لأنهم مرّوا بتجارب متنوعة، وليس لأنهم يبدون مختلفين في المظهر الخارجي. كان التأثير الأعظم في حياة مارغريت ميد الطفلة هو وجود جدتها مارثا رامسي ميد التي كانت تعيش مع العائلة، وهي خريجة معهد، وقد عملت مدرّسة ومديرة مدرسة. شجعت الجدة مارغريت على حفظ الشعر وكانت تعلمها الرياضيات وعلم النبات، وكانت تصر على أن تنجز أي عمل تبدأ القيام به، وأن تكون مسؤولة عن إخوتها الصغار في غياب أمها. وكانت الجدة تثق بمارغريت كما لو كانت فتاة كبيرة. أحبت مارغريت جدتها حباً كبيراً، وكانت شديدة الإعجاب بها. وقد ذكرت لاحقاً أنها كانت تمثل الجيل الثالث من النساء العاملات في عائلتها حيث قالت: «إن جدتي هي التي منحتني السكون والطمأنينة لكوني امرأة». كانت مارغريت طفلة كثيرة الكلام، وكانت تهتم بكل شيء يجري حولها ولطالما أحبت أن تكون على علم بكل شيء له تأثير عليها أو على عائلتها. ذات يوم، بكت على العشاء لأن دجاجة من حظيرة المنزل قد تم إعدادها على العشاء، وقد أخبرت والديها بأنها لم تبك لأن الدجاجة قد ذبحت؛ بل لأنهم لم يخبروها بذلك. عندما بلغت العاشرة من

عمرها، عُيّن والدها بوظيفة يقوم فيها بالمساعدة على إنشاء أقسام إضافية للجامعة؛ مما تطلب منه السفر في أنحاء بنسلفانيا. وبذلك عاشت العائلة في ترحال مستمر بين بلدات صغيرة في الولاية، ولفترات وجيزة. وقد أحصت مارغريت ذات مرة ستين منزلاً مختلفاً عاشت فيهم، وهي لا تزال مراهقة. إلا أنها تعلمت أن تشعر بحميمية المكان الذي تعيش فيه أينما حلّت؛ وذلك بإيجاد بقعة صغيرة تجعل منها مكاناً خاصاً لها، وكانت في الغالب تختار علّية المنزل. لم تواظب مارغريت على دوام المدرسة حتى وصولها المرحلة الثانوية وذلك لسببين: أولهما عدم استقرار العائلة في مكان واحد وثانيهما اعتقاد والدتها بأن تعليم الأطفال لا يستلزم بالضرورة الجلوس خلف المقعد طوال اليوم. استعاضت الأم عن ذلك أن وظفت لأولادها خبيراً محلياً يقوم بتعليمهم كل ما أرادوا معرفته بالطريقة المثلى. وهكذا تعلمت صناعة السِّلال والرسم والأعمال الخشبية، إلى جانب تعلمها المواد التقليدية الأكاديمية من خلال دروس أخذتها في البيت مع جدتها. تشربت مارغريت من والدها حب الحقائق والاعتقاد أن أهم شيء يمكن أن يفعله المرء هو أن يضيف شيئاً إلى مخزن العالم المعرفي وقد أخذت عن والدتها الاهتمام بالآخرين. ولكن وعلى الرغم من إعجاب مارغريت بوالديها إلا أنها أقسمت على ألاّ تشبه أياً منهما. فقد كان والدها عنيداً ودكتاتورياً ولم يكن يهتم بمشاعر أولاده حيال مختلف الأشياء، إذ أن المرة الوحيدة التي ألبس فيها مارغريت حذاءها كانت

صباح ولادة أخيها ريتشارد، وقد ألبسها إياه بطريقة خاطئة. أما أمها فعلى الرغم من كونها امرأة عاملة ومثابرة ومكافحة من أجل أهداف سامية ومتعصبة لحقوق المرأة، إلا أنها كانت تفتقر لحس المرح والفكاهة، وكانت امرأة عملية إلى حد بعيد، وكانت متلهفة للحصول على حق المرأة في الانتخاب، وعلى فرص أكثر للعمل. ولم تكن تحب الجمال، فقد كانت تُلبس مارغريت سروالاً فضفاضاً مزموماً عند الركبة لتسهّل عليها تسلق الأشجار مع أن مارغريت لم تكن مغرمة بذلك كثيراً. فلطالما تاقت مارغريت لارتداء الفساتين والقبعات الجميلة. وقد تمثل تمردها على أمها لاحقاً في رغبتها أن تظهر كأنثى لطيفة وسيدة أنيقة. بقيت مارغريت في مراحل لاحقة من حياتها متشككة في نظرية المساواة بين المرأة والرجل، وكانت تشعر أن والدتها كانت مناصرة مظلومة لحقوق المرأة، وغير راضية عن قسمتها؛ وهذا ما كانت مارغريت مصممة على ألا تفعله.

لم يكن لدى والدي مارغريت القدرة على التعبير عن مشاعرها بسهولة، وكانت تشعر أنهما يفضلان إخوتها عليها، ربما لأن إخوتها كانوا أكثر طاعة وسهولة في التوجيه منها. في باقي مراحل حياتها، كانت تظهر حاجة ملحة للعاطفة، وتحاول ملء الفراغ الذي عانت منه في طفولتها والذي حاولت جدتها أن تملأه. وهذا ما دفعها في مرحلة لاحقة من حياتها إلى أن تحول جميع رفقائها من الجنسين إلى أحبة.

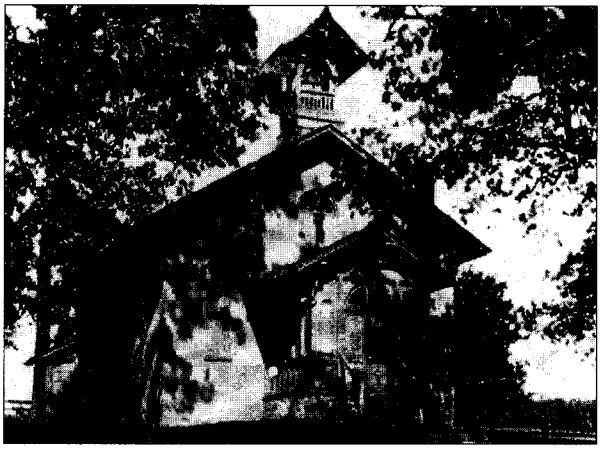

انضمت ميد وهي في الحادية عشر من عمرها إلى الكنيسة الأسقفية في باكنغهام في بنسلفانيا. أقلّها والدها بالسيارة إلى الكنيسة في اليوم الذي تعمّدت فيه ولكن والدها اعتبر الأمر برمته مزحة مما أثار حفيظة مارغريت.

كان والدا مارغريت حنونين، ولم يكونا من روّاد الكنيسة، ومع ذلك قررت مارغريت أن تعمَّد وهي في سن الحادية عشرة في باكينجهام في بنسلفانيا. وقد ذكرت لاحقاً أنها كانت تبحث عن شيء يعطي تفسيراً لمشاعرها، بعد ذلك، كانت تنسلُّ من بيتها في صباح الأحد لتحضر الاجتماعات إذا سنحت لها الفرصة. وقد أصبحت فيما بعد صديقة لابنة كاتب الإنجليزي المولد وكان اسمها كما ذكرت مارغريت الآنسة لوسيا.

كانت الآنسة لوسيا فتاة واعية ومهذبة، وقد كانت مارغريت شديدة الإعجاب بها لدرجة أنها قررت أن تتزوج عندما تكبر، وتنجب الكثير من الأطفال.

عندما بلغت مارغريت السادسة عشر من العمر، أنهت الصف الثاني الثانوي في مدرسة دويلز تاون الثانوية في بنسلفانيا. ثم قابلت بعد ذلك شاباً في العشرين من عمره يدعى لوثر كريسمان، وهو طالب في السنة قبل الأخيرة في كلية بنسلفانيا. وكان قد قدم إلى دويلزتاون في زيارة إلى أخيه الأكبر جورج الذي يعمل مدرس علوم في ثانوية دويلزتاون. دعت عائلة ميد جورج ولوثر إلى العشاء في منزلهم، وعلمت مارغريت منهما أن لهما أربعة إخوة،

وأن والدهم يعمل طبيباً في بلدتهم، وأن لوثر يريد أن يصبح رجلاً اجتماعياً. في صيف تلك السنة تبادل لوثر ومارغريت الرسائل.

وفي الخريف دعت عائلة لوثر مارغريت لزيارتهم في مزرعتهم التي تبعد أربعين ميلاً عن دويلزتاون. وفي فترة الأعياد نشأت علاقة سرية بين مارغريت ولوثر. فقد كانت مارغريت تجده مناسباً ليس فقط لأن وظيفته المستقبلية مناسبة فحسب، بل لأنه وعلى النقيض من والديها كان هادئاً وعطوفاً ومرحاً. وقد قررا الزواج في غضون أربع سنوات بعد أن تنهي هي دراستها، وينهي لوثر تعليمه. كانت مارغريت تأمل أن تلتحق بكلية ويلسلي التي التحقت بها والدتها، لكن عندما آن الأوان لذلك رفض والدها الأمر بحجة أن دخولها الكلية سيكون كلفة لا ضرورة لها لأنها ستتزوج ولن تعمل. لحل هذه المشكلة، اقترحت والدتها أن تلتحق بجامعة دي باو في ولاية إنديانا حيث يعمل والدها. وهكذا وفي خريف عام 1919 توجهت مارغريت غرباً إلى دي باو.

مارغريت (من اليسار) وكاثرين رويشنبيرجر وهما ترتديان ثياب مهرجان شهر مايو. في جامعة دي باو عام 1920. وقد ظلّتا محافظتين على الصداقة طوال عمرهما.

كانت ميد دائماً متشوقة للذهاب

إلى الجامعة ولكن صدمتها كانت كبيرة إذ وجدت نفسها تعيسة في دي باو، فالملابس التي انتقتها بعناية فائقة لم تكن كملابس الفتيات الأخريات. كما كان اندفاعها الفكري يعد شاذاً وغريباً. حتى أغراض الشاي والصور التي جلبتهما معها لغرفتها كانت موضع سخرية. وقد نشدت التحرر الغربي والخروج عن الرسميات، ورغبت في الحرية، لكنها وجدت بدلاً من ذلك كله خضوعاً مضللاً للعقل. والأسوأ من ذلك كله كانت النوادي النسائية؛ وهي نوادٍ اجتماعية تسيطر على الحياة الجامعية. للمرة الأولى في حياتها، أحست مارغريت بالتفرقة تمارس ضدها عندما لم تتم دعوتها لتنضم إلى أيٍّ من هذه النوادي. وهذا الإحساس بعدم العدالة ملأها غيظاً؛ وهي التي نشأت معتقدة أن الناس متساوون وأنه ينبغي معاملتهم بذوق وتهذيب. علاوة على ذلك، فقد كانت تنظر إلى نفسها على أنها مميزة لأن والديها كانا أكاديميين. على كل حال فقد وجدت نفسها الآن ضحية لنظام متعال وسخيف.

إلا أن مارغريت لم تكن من الذين يتألمون بصمت، فقد صممت على أن تجعل الذين رفضوها يندمون على ذلك. فانخرطت في نشاطات الجامعة، وراحت تكتب مسرحيات فكاهية قصيرة للطالبات الجدد، وألفت وأخرجت المهرجان المسرحي الذي تقدمه الطالبات كل سنة، وقامت بتصميم عربات للطلاب الجدد في المهرجان المسرحي. كما أدارت حملة ترشيح صديقتها

كاثرين روثينبيرجرز لمكتب الطلبة الذي يتيح الفرصة للطالبات من خارج الأندية أن تفوز في الانتخابات؛ لتصبح نائبة الرئيس في الصف. إلا أن هذه الشهرة وهذا التوهج في الجامعة لم يقللا من تعاستها في دي باو. وكان المخرج من ذلك في نهاية السنة حيث استطاعت إقناع والدها بالانتقال إلى جامعة بارنارد في مدينة نيويورك. عدة أسباب دفعت مارغريت لاختيار بارنارد منها: كون لوثر كريسمان يدرس في نيويورك؛ وبذلك ستكون إلى جانبه. ولكن الأهم من ذلك كان موقع نيويورك في طليعة الحياة الفنية والعقلية خلال مرحلة الازدهار في العشرينيات والتي سميت مجازاً بعصر النشاط والحيوية. وهذا ما كان يناسب مارغريت التي أرادت أن تكون حيث تكون الأشياء الأكثر إثارة، وحيث تستطيع دخول المسرح والجلوس على المقاهي وقراءة المجلات الصغيرة التي تنشر الشعر والنقد الفني والأدب التجريبي. وبذات الأهمية كذلك أن جامعة بارنارد كانت مخصصة للنساء في حين كانت دي باو مختلطة. فقد لاحظت أن الفتيات كن يحصلن عادةً على أعلى الدرجات في الفصل، بينما كن يعانين اجتماعياً نتيجة تفوقهن على زملائهن من الفتية. فأرادت أن تدرس في كلية مخصصة للنساء بما يمكّنها من العمل بجد وهي راضية عن نفسها، وغير مضطرة لأن تقلق من موقف الطلاب الذكور منها. وعندما أصبحت عالمة إنسان فيما بعد، كان هذا الموقف يجبرها على ألا تتنافس مع رفقائها من الذكور بل أن

تختار مواضيع يفضل أن تقوم المرأة بدراستها كدراسة حياة النساء والأطفال.

أحبت مارغريت الحياة في نيويورك، حيث سكنت في شقة خارج أسوار الجامعة مع عدد من صديقاتها من جامعة بارنارد، أطلقن على أنفسهن اسم (قطط علبة الرماد). وقد قال أستاذ في الجامعة ذات مرة أنهن يبدون كذلك؛ بعد سهر عدد من الليالي. قد تكون هذه التسمية كناية برسامي (علبة الرماد) الذين كانوا يصورون في رسوماتهم الجانب المظلم والقذر من حياة الشارع في نيويورك. كانت فتيات (قطط علبة الرماد) يكتبن الشعر ويذهبن للمسرح ويقرأن كتابات سيغموند فرويد حول الأسلوب الجديد للتحليل النفسي. وذات صباح في شهر مايو قامت الفتيات بتعليق سلة ورد على باب الشاعرة إدنا سانت فنسنت ميللي في قرية جرينويج. وعندما رأتهن ميللي ينطلقن بعيداً، أصرت على أن يعدن ويخبرنها عن أسمائهن. فانصرفن مبتهجات بمقابلة الشاعرة المشهورة. كانت مارغريت تعتبر الأكثر جدية من بين صديقاتها. كانت لا تكترث كثيراً لطريقة لبسها. ولم تكترث أبداً بالرجال لأنها كانت مخطوبة للوثر كريسمان، الذي كانت تراه مرة كل أسبوع تقريباً. وأصبحت مارغريت محور المجموعة، توبخ بعضهن وتستمع لمشاكل بعضهن الآخر وتساعدهن على ترتيب مواعيدهن.

اختارت مارغريت ميد في بداية مشوارها الأكاديمي أن

تتخصص في اللغة الإنجليزية لأنها كانت تنوي أن تصبح كاتبة. لكنها سرعان ما أحست أنها لا تملك الموهبة التي تملكها صديقتها ليوني آدامز، التي كانت حينها شاعرة قد نشرت عدداً من أعمالها. ولم تكن تريد مارغريت أن تكون كاتبة فاشلة، بل أرادت أن تفعل شيئاً تستطيع أن تنجح فيه. كان والداها عالمي اجتماع، وقد أدركت ميد أن العلم يعطي مساحة أكبر لإبراز مختلف المواهب التي يتمتع بها الناس؛ ليقدموا إسهاماتهم.

اختارت علم النفس حتى بداية السنة الثانية عندما التقت بالمرأة التي وجهتها إلى علم الإنسان؛ والتي أصبحت صديقة عمرها. رَث بندِكت التي كانت تكبر ميد بخمس عشرة سنة. وكانت تتمتع بجمال كبير. وكانت خجولة وصماء بشكل جزئي. كما كانت طالبة في كلية فاسار، وعملت مدرسة ثم تزوجت من عالم كيمياء حيوية، وانخرطت في الأعمال الخيرية والرقص والشعر والكتابات غير القصصية حتى عام 1919 حيث كانت لا تزال تبحث عن شيء يعطيها الإحساس بالرضى. فوقّعت على عقد للقيام بسلسلة محاضرات عن علم الإنسان في «المدرسة الجديدة للأبحاث الاجتماعية» في مدينة

رَث بندكت أقرب أصدقاء ميد وأعز رفيقاتها. فقد تبادلتا قراءة أشعار بعضهما وكذلك كل كتاباتهما الأخرى.

قام فرانز بواز بتدريس أشهر علماء الإنسان في الولايات المتحدة الأمريكية حتى الحرب العالمية الثانية. كان طلابه يحترمونه ويشعرون بالرهبة منه.

نيويورك والتي أنشأها حديثاً علماء اتحدوا في رفضهم للحرب العالمية الأولى. في الحال، كانت بندكت قد أخذها البعد الفكري والتوهج العقلي لهذا المجال، وملأ كيانها إحساسٌ بأهمية العمل الذي يجب عليها القيام به. فقامت بالتسجيل في جامعة كولومبيا كطالبة دراسات عليا في علم الإنسان.

في هذه الأثناء، كانت مارغريت تنظر إلى ما هو أبعد من علم النفس؛ فأخذت دروساً في علم الاجتماع. وفي السنة الثانية سجلت في مادة علم الإنسان التي كان يدرِّسها الأستاذ فرانز بواز مع الأستاذة المساعدة رث بندكت.

كان الأستاذ فرانز بواز رجلاً قصيراً أشيب الشعر، في منتصف الستينيات من العمر. ولد في ألمانيا، وكان يحمل على خده ندبة خلفتها مبارزة من أيام دراسته في الجامعة. كان لدى الطلاب انطباع أن فرانز بواز أستاذ شديد القسوة. وكان متخصصاً في المجالات الأربعة لعلم الإنسان وهي: علم الإنسان الثقافي وعلم الإنسان الفيزيائي واللغويات وعلم الآثار. وكان يعد من أبرز علماء الإنسان في الولايات المتحدة الأمريكية. لقد أثار الجدل في جامعة كولومبيا بعد رفضه الانضمام إلى الحملة

الدعائية ضد ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى، فكان ولاؤه لبلده أميركا موضع شك وتساؤل. نتيجة لذلك تم إلغاء المحاضرات التي كان يعطيها لطلاب الدرجة الجامعية الأولى في جامعة كولومبيا، إلا أنه لم يأبه لذلك كثيراً. فقد سمح له بالاستمرار في محاضراته في كلية الطالبات التابعة لجامعة برنارد التي كانت تتعامل مع جامعة كولومبيا.

كان بواز على كل الأحوال يفضل جامعة برنارد على كولومبيا لأنه كان يرى أن أغلب طلاب كولومبيا كانوا ينشدون التوجه للعمل، بينما كان طلاب برنارد أكثر انفتاحاً على مادة غير اعتيادية مثل علم الإنسان. كان بواز أستاذاً صعباً وكثير المطالب، وكانت مارغريت تخافه في بداية الأمر. ووجدت أنها تستطيع أن تتكلم مع مساعدته رث بندكت. فأخذتا تتقابلان على العشاء في كثيرٍ من الأوقات، أو تلتقيان في الرحلات الميدانية إلى المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي. ناقشت ميد مع بندكت مستقبلها المهني بما في ذلك إمكانية الحصول على عمل في مجال علم الإنسان، فردَّت عليها بندكت قائلة: «الأستاذ بواز وأنا لا نملك أن نقدم لك شيئاً سوى إتاحة الفرصة لفعل ما هو حقاً مهم». وذلك وفقاً لما ذكرته مارغريت لاحقاً في سيرتها الذاتية. دغدغت هذه الكلمات المؤثرة مشاعر وأحاسيس مارغريت ميد. فقد كانت بندكت تنظر إلى علم الإنسان على أنه واجب، وسبب ينبغي على الإنسان أن يكرس حياته من أجله؛ لأنه عمل

أقسام علم الإنسان الأربعة:

يُعنى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) بدراسة الإنسان، إلا أن مضمونه يختلف من بلد إلى آخر. يقسم عادة في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض البلدان الأخرى إلى أربعة أقسام فرعية:

1. علم الإنسان الفيزيائي أو الحيوي:

هو دراسة علم حياة الإنسان، ويشتمل على دراسة ارتقاء الأجناس البشرية، وعلاقة الإنسان بالبيئة الفيزيائية، والتنوع في جسم البشر، وعلم الجينات البشري.

ربما يكون علم الآثار الفرع الأكثر شهرة لعلم الإنسان. هذا التنقيب عن موقع مخلفات للسكان الأمريكيين الأصليين في حديقة واشنطن، إيلينوي عام 1972 وجد العلماء ثروة من المعلومات الثقافية العظيمة التي ظهرت منذ أكثر من ألف سنة.

2. اللغويات:

وهي دراسة اللغات وكيفية اتصال الواحدة بالأخرى. يدرس علماء الإنسان عادة اللغات دون استعمال النصوص المكتوبة، بل بالاستماع إلى هذه اللغات كما يتكلمها الناس المعاصرون لها.

3. علم الإنسان الثقافي أو الاجتماعي:

ويسمى أحياناً علم الأعراق البشرية أو علم الإنسان الوصفي، وفيه تتم دراسة الأنماط المعروفة للسلوك الإنساني من العائلة حتى حياة المجتمعات. تتضمن هذه الدراسة أشكال المنظمات الاجتماعية، والطرق المستخدمة لتطويع العالم الطبيعي.

4. علم الآثار:

يُعنى بدراسة المجتمعات الزائلة مرتكزاً على البقايا المادية التي تتضمن الأحافير، والأعمال الفنية اليدوية، والمدافن، ومواقع الاستيطان والنصب التذكارية.

مهم، وهذا بالضبط ما كانت ميد تبحث عنه.

قدم كل من فرانز بواز ورث بندكت إلى ميد رؤية عن علم الإنسان على أنه النظام العلمي الذي يساعد الناس على فهم أفضل لبعضهم بعضاً؛ مما يجعلهم يحيون حياة أكثر عقلانية ومن ثمَّ أكثر سعادة، وأنه يساعد كذلك على محو التمييز بين الطبقات الاجتماعية. فبإمكان علماء الإنسان بفضل دراسة المجتمعات غير الغربية مثل المجتمعات التي تعيش في جزر المحيط الهادئ أن يفصلوا بين ما هو عالمي في السلوك البشري الذي كونته الحياة عما هو ببساطة نتيجة اختيارات ثقافية، وطرق خاصة طورتها المجتمعات في تربية أولادها، وتنظيم العلاقات بين الجنسين، وتوفير الاحتياجات الإنسانية الأساسية. كانت هذه المجتمعات الصغيرة التي تسمى بدائية مثل المكتبة التي يستطيع الفرد فيها دراسة طرق الحياة الأخرى. قد تكون كلمة «بدائي» مصطلح مجحف، ولكن عندما يستخدمه علماء الإنسان فإنهم يقصدون منه عموماً وببساطة الثقافة التي لا يوجد عندها لغة مكتوبة.

يدرك علماء الإنسان أنه قد يكون لدى هذه المجموعات مستوىً متدنٍ من التقنية، وقد لا يكون لديهم لغة مكتوبة، لكن لديهم طقوس غاية في التعقيد، وفن ولغات محكية ونظم علاقات. كان علم الإنسان حتى الحرب العالمية الثانية هو الدراسة الأكاديمية التي اهتمت بدراسة تاريخ وعادات الشعوب البدائية وغير الأوروبية، لكن ونتيجة

كانت ميد تقرأ مجلات مثل «عالم الإنسان الأمريكي» بشكل دائم كجزء من اهتمامها الجديد في هذا المجال. وقد ظهرت مقالات كثيرة لأستاذها فرانز بواز في هذا العدد الصادر عام 1920.

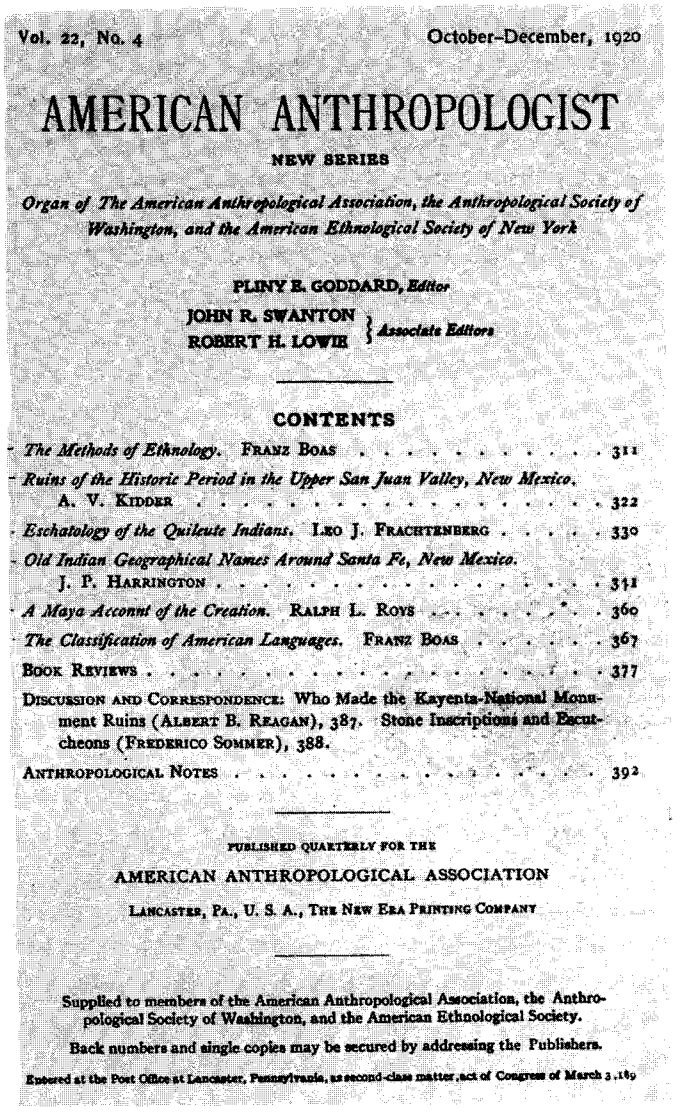

Vol. 22, No. 4 October–December, 1920

AMERICAN ANTHROPOLOGIST

NEW SERIES

Organ of The American Anthropological Association, the Anthropological Society of Washington, and the American Ethnological Society of New York

PLINY E. GODDARD, *Editor*

JOHN R. SWANTON, ROBERT H. LOWIE } *Associate Editors*

CONTENTS

The Methods of Ethnology. FRANZ BOAS 311
Ruins of the Historic Period in the Upper San Juan Valley, New Mexico. A. V. KIDDER 322
Eschatology of the Quileute Indians. LEO J. FRACHTENBERG 330
Old Indian Geographical Names Around Santa Fé, New Mexico. J. P. HARRINGTON 341
A Maya Account of the Creation. RALPH L. ROYS 360
The Classification of American Languages. FRANZ BOAS 367
BOOK REVIEWS 377
DISCUSSION AND CORRESPONDENCE: Who Made the Kayenta-National Monument Ruins (ALBERT B. REAGAN), 387. Stone Inscriptions and Escutcheons (FREDERICO SOMMER), 388.
ANTHROPOLOGICAL NOTES 392

PUBLISHED QUARTERLY FOR THE
AMERICAN ANTHROPOLOGICAL ASSOCIATION
LANCASTER, PA., U. S. A., THE NEW ERA PRINTING COMPANY

Supplied to members of the American Anthropological Association, the Anthropological Society of Washington, and the American Ethnological Society.

Back numbers and single copies may be secured by addressing the Publishers.

Entered at the Post Office at Lancaster, Pennsylvania, as second-class matter, act of Congress of March 3, 1879

للحروب العالمية والتجارة العالمية والسفر، ومن ثمّ انتشار الحضارة الغربية في أنحاء المعمورة، بدأت عادات هذه الشعوب تختفي بشكل سريع، لذلك كان من المهم دراسة هذه الثقافات سريعاً قبل أن تتغير وإلى الأبد.

كان هناك أيضاً حاجة ملحة لدراسة المجتمعات الهندية الأمريكية، والذين بدت تقاليدهم في طريقها إلى الزوال. كانت دراسة هذه المجتمعات تسمى «بعلم الإنسان المنقذ» وهي محاولة علماء الإنسان إنقاذ ما يستطيعون إنقاذه من الأساطير والشعائر واللغات، وطرق المعيشة القديمة للسكان الأصليين قبل أن تختفي كما توقع جميع الناس في ذلك الوقت.

آمن كل من بواز وبندكت بالمعرفة ليس فقط من أجل المعرفة بل كوسيلة لتحسين الحياة الإنسانية فقد اعتقدا أن باستطاعة الأمريكيين أن يتعلموا أكثر من المجتمعات الأخرى، واعتقدا أن القوالب الفكرية الخاطئة عن كون الهنود الأمريكيين «كسالى» أو «متوحشين» مبنية على الخطأ، وكذلك التمييز العنصري ضد السود، وقوانين الهجرة المطبَّقة على الأوربيين الجنوبيين. اعتقد فرانز بواز وبندكت أن علم الإنسان سيغير هذه التصورات العقلية الخاطئة، والتحامل ضد جماعات معينة، وأن علم الإنسان سيساعد على فهم تاريخ هذه المجموعات، وأسباب تصرفات الناس بالطريقة التي يتصرفون بها.

وهكذا قررت مارغريت أن تصبح عالمة إنسان، ولكن كان عليها أولاً أن تنهي دراسة علم النفس الذي بدأتها. فاختارت مشروع الدراسة قريباً من اهتمامات أستاذها فرانز بواز. ورجعت إلى هامونتون في نيوجيرسي حيث درّست والدتها في الماضي المهاجرين الإيطاليين، وأجرت دراسةً هناك بنفسها. إن اختبارات الذكاء التي كان يجريها جيش

الولايات المتحدة على المهاجرين خلال الحرب العالمية الأولى بدت نتيجتها كما لو أن المهاجرين الجدد والسود كانوا أقل ذكاءً من بقية الأمريكيين. تشككت مارغريت في هذه النتائج وقامت بإجراء دراسة كشفت عن أنه؛ كلما طالت مدة مكوث العينة (عدة أشخاص) التي تجري عليها الدراسة أكثر في الولايات المتحدة، كلما كانوا يتكلمون الإنجليزية أكثر في موطنهم الأصلي، وكلما كانت نتائج اختباراتهم والتي من المفروض أنها تقيس درجة الذكاء أفضل. وبذلك تبين لها أن الباحثين الذين ظنوا أنهم يقيسون القدرة الفطرية والذكاء كانوا إلى حد ما يقيسون فقط المعرفة باللغة الإنجليزية.

في تلك الأثناء، ولتنفيذ الخطة التي رسمتها مع لوثر كريسمان منذ أربع سنوات خلت، أصرت مارغريت على أن تتزوج. رفضت عائلتها الأمر واعتقدت جدتها أنها تحاول فقط أن تفعل ما هو متوقع منها القيام به. ولم يكن والدها متأكداً من أن لوثر يعجبه وحتى لوثر نفسه كان قلقاً كونهما لا يزالان طالبين، ربما لن يكون لهما المال الكافي ليعيشا منه. إلا أن ميد كانت مصممة خاصة بعد أن حاول والدها رشوتها لتغير رأيها، إذ عرض عليها رحلة حول العالم، وهذا ما أحسته إهانة للعدل والإنصاف. تزوجت من لوثر كريسمان في الثاني من سبتمبر عام 1923 في باكينجهام في بنسلفانيا، حيث عاشت فيها عشر سنين. الآن تبلغ ميد من العمر 21 سنة وكريسمان 26 سنة.

كان أول مشروع لميد في علم الإنسان دراسة أكثر شمولية عن التوازن الثقافي. وقامت بجمع المعلومات من المكتبة عن طرق بناء البيوت والزوارق الطويلة. لم يكن بواز يؤمن بالبرامج الطويلة لنيل الدكتوراه مثل تلك التي تتطلب من الطالب في وقتنا الراهن أربع إلى ست سنوات لنيل درجة الدكتوراه. بل كان يرى أنه من المهم للطالب أن يأخذ منه كيفية التعامل مع القضايا في علم الإنسان، ومن ثم يستطيع مسلحاً بدرجته العلمية المتقدمة أن يبدأ أعماله الوظيفية، والتي تعني الحصول على عمل والانخراط في العمل الميداني؛ أي الحياة لفترة طويلة بين الناس الذين يريد دراستهم.

أحبت ميد أن تجري دراسة ميدانية على الهنود الأمريكيين مثلما فعل الكثير من علماء الإنسان قبلها بما فيهم فرانز بواز وبندكت، لكنها حضرت محاضرة في تورونتو «للجمعية البريطانية لتطوير العلم» عام 1924 حيث قابلت هناك علماء إنسان عادوا لتوهم من أماكن بعيدة وقد درسوا أناساً لم يزرهم من قبل أي عالم إنسان. كانوا يتحدثون عنهم بكلمة «شعبي» مثل قولهم «شعبي يفعلون كذا وكذا» وكان يتكلمون بسُلطَة لا تقبل النقاش لأنه لم يكن لدى أحد أي علم عن هؤلاء الناس. أحبت ميد ذلك، وأرادت أن يكون لديها شعباً خاصاً بها وحدها. قررت أن تدرس التغير الاجتماعي في منطقة كان التأثير الغربي فيها لا يزال في بدايته.

وعندما أخبرت فرانز بواز بما تطمح لفعله، رفض

ذلك لأنه كان قلقاً عليها فهي لا تزال صغيرة على الذهاب بمفردها بعيداً عن الوطن وكان قلقاً كذلك على صحتها حيث كانت سريعة التعرض للمرض، غالباً تعاني من أوجاع عضلية شديدة .

اعتقد أيضاً أن ذلك يشكل خطراً على حياتها فقد عرف كثير من علماء الإنسان الذين ماتوا أو قتلوا بينما كانوا يقومون بأعمال ميدانية في إفريقيا وجنوب الهادئ. وفي ذات يوم سمَّاهم لها كلهم بالاسم كنوع من الترهيب. كان لدى بواز مشروع لميد فقد أرادها أن تختبر نظرية قدمها مؤخراً عالم النفس ج. ستانلي هول. زعم هول في نظريته أن المراهقة مرحلة عاصفة في حياة الإنسان لا يمكن تجنبها، وأن في هذه المرحلة يتمرد الأطفال على ذويهم ويبحثون عن استقلاليتهم. تشكك بواز في صحة تلك النظرية فبالطبع كانت هناك ثقافات قد صممت طرقاً لمساعدة صغار السن على الانتقال بسهولة من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب.

بعض القبائل الهندية على سبيل المثال كانت تقيم مراسم خاصة لصغار السن عندما يصلون إلى سن البلوغ. أو كان لديهم فترات اختبار مثل ما سموه «الباحثون عن الرؤيا» والتي فيها يغادر الشاب إلى الغابة وحيداً دون طعام أو ماء لعدة أيام باحثاً عن رؤية الحيوان الذي يصبح بعد ذلك مرشده. ربما ساعدت هذه الطقوس على جعل فترة المراهقة أقل توتراً؛ بتسهيل ظروف الانتقال إلى

مرحلة البالغين. أراد بواز أن تدرس ميد المراهقة بين الهنود الأمريكيين. ولكن هذا لن يجعل ميد تغير رأيها، فالمجتمعات الهندية الأمريكية قد تم دراستها مراراً وتكراراً حتى أن النكتة الدارجة كانت أن العائلة الهندية المتحفظة كانت تتكون من أب وأم وطفلين وعالم إنسان. أرادت ميد أن تذهب إلى حيث لم يذهب أحد قبلها، وأرادت شعباً ملكاً لها وحدها، أناساً بعيدين تكتشف هي كيف يعيشون في الوقت الحاضر، لا أن تدوّن ذكريات العجائز عن طريقة حياة انقرضت ولم تعد موجودة. وبشكل لم يكن أحد يتوقعه، جاء والد ميد لإنقاذها فقد كان يحب إعطاء الأوامر في عائلته، ولم يكن يحب أن يملي أي رجل آخر إرادته على ميد، حتى ولو كان الأستاذ بواز. عرض على ميد أن يموّل الرحلة إلى جنوب الهادئ إذا كان هو المكان الذي تريد الذهاب إليه. اختارت ميد في البداية جزر تواموتو البعيدة؛ وهي جزء من بولينيسيا الفرنسية، إلا أن بواز أصر على أن تختار على الأقل جزيرة ترتادها سفينة كل بضعة أسابيع. وهكذا استقر رأيها على ساموا الأمريكية وهي محمية أمريكية في جنوب الهادئ حيث توجد قاعدة للبحرية الأمريكية. وكان وجود صديق والد كريسمان دافع آخر لاختيار هذه الجزيرة وقد كان صديق والد كريسمان كبير الأطباء في البحرية الأمريكية يستطيع أن يطمئن عليها.

مع تحمل والد ميد مسؤولية ابنته، توصل بواز وميد إلى تسوية تقتضي أن تدرس ميد البنات المراهقات،

مارغريت ميد عالمة الإنسان ذات الأربع والعشرين ربيعاً عشية مغادرتها إلى ساموا وقد كانت مبتهجة ومستعدة للبدء في دراسة المراهقة الساموية.

ولكنها أصرت على أن تقوم بذلك في ساموا بينما يدرس كريسمان لمدة سنة في أوربا.

حزمت ميد حاجياتها بسرور؛ وهي عبارة عن ستة فساتين قطنية ونظارة إضافية، وكاميرا وآلة كاتبة محمولة وستة دفاتر كبيرة لتدوين الملاحظات، وصندوق معدني صغير لحفظ النقود والأوراق الهامة. ستندهش ميد لاحقاً من قلة الأدوات التي أخذتها معها إلى ساموا. تلقت تدريبها الوحيد على كيفية القيام بالعمل الميداني من خلال تعليمات أخذتها في جلسة لمدة نصف ساعة مع الأستاذ بواز. علّمها أن عليها أن تبدو أنها تضيع الوقت بالجلوس هنا وهناك والاستماع إلى الناس. وكانت نصيحته الثانية أن عليها ألاّ تحاول دراسة الثقافة بأكملها بل باختيار مساحة خاصة للبحث. على الرغم من أنه لم يشرح أحد لمارغريت كيفية عمل عالم الإنسان بشكل واضح، إلا أنها تشربت من بواز وبندكت وأمها ما أسمته لاحقاً بـ: «قواعد العمل الأساسية لعالم الإنسان في كتابها «ذكر وأنثى» الذي نشرته عام 1949» وفيه وصفت عالم الإنسان بشخص «ينظر إلى الناس الذين يعمل بينهم على أنهم أناس لا يقلُّون أو يزيدون عنه في شيء وأنه الذي يتحمل المشقة ليتعرف على طريقتهم في الحياة بأدق التفاصيل، وهو الذي يحاول ألا يمس حياتهم وأن يتركها كما هي قدر المستطاع، متعاملاً مع النسيج الحياتي الكامل

كمساهمة مهمة لعلوم الإنسان»، وهذا كان قانون الأخلاقيات عندها. في أواخر صيف 1925، اجتمعت عائلة ميد في بنسلفانيا وأقامت حفل وداع لميد ولوثر. استقلت ميد بعد ذلك قطاراً إلى سان فرانسيسكو حيث تأخذ من هناك قارباً إلى هاواي ثم إلى ساموا. لم تأتِ ميد إلى غرب شيكاغو من قبل، كما أنها لم تمكث في فندق لوحدها من قبل. بينما كان القطار الذي يقلها يغادر المحطة بعيداً، علّق والدها معجباً بشجاعتها قائلاً: «لم تنظر قط خلفها».